تجربتى فى صنعة معجم البلاغة العربية *

للدكتور بدوى أحمد طبانة

أردت أن أسهم فى هذا المؤتمر المشهود الذى احتشد له هذه الصفوة من العلماء العاملين والجهابذة المفكرين المختصين فى فنون من المعارف الإنسانية ، وهذه الكوكبة من علماء العربية ، وأهل الحفاظ على مقوماتها وعلى تراثها الخالد ، ولسانها المبين الذى نزل به القرآن الكريم هدى ونوراً يهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ·

وأردت أن يكون إسهامى بحديث عن تجربتى فى صنعة « معجم البلاغة العربية » لارتباطه الوثيق بالموضوع الذى اختاره مجمعكم الموقر للبحث والمدارسة فى هذا المؤتمر ، وهو منهج المعجم العربى ومصادره ·

وقد كان إصدار معجم للبلاغة العربية حديثاً للنفس ، وحلمًا من الأحلام ظل يراودنى سنين طوالاً فى ربيع العمر منذ قُدِّر لى أن أنحاز فى دراستى العليا إلى مجال البلاغة والنقد الأدبى ·

وقضيت فى إعداد هذا المعجم خمسة وعشرين عاماً فى البحث والتنقيب وتقليب المراجع المشهورة والمغمورة على السواء لاستخلاص مادته العلمية ·

وأقدمت على هذه التجربة مستعينًا بالله ، وأنا مشغوف بها ، ومطمئن إلى نتيجتها وجدواها ، وكان من وراء هذا الشغف غيرة على هذا التراث الخالد ، وخوف عليه من عوادى الزمن ، بعد أن

---

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة من جلسات المؤتمر ، يوم الثلاثاء ٢٨ من شوال سنة ١٤١٣هـ،الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٩٣ م ·

ارتفعت أصوات غريبة تحاول أن تقوض هذا الصرح المكين ، وتزهد طلاب المعرفة فيه بدعوى صعوبة مناله ، ووعورة السبيل إليه ·

ولست أعرف أن الصعوبة وحدها سبب كاف لانتقاص ماهو حسن فى ذاته ، أو لاطّراح مافيه خير كثير ، بل إن صعوبة المطلب هى محكّ الرجال ، ومختبر العزائم ، وقديماً قال الشاعر : « على قدر أهل العزم تأتى العزائم » وكما قال: « لولا المشقة ساد الناس كلهم » !

ولو كان تحصيل العلوم كلها سهلاً ميسوراً « لبطل التفاوت بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر · ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة · وكل باب من أبواب العلم منه مايجلّ ، ومنه مايدقّ ، ليرتقى المتعلم رتبة بعد رتبة ، حتى يبلغ منتهاه ، ويدرك أقصاه ، ولتكون للعالم فضيلة النظر وحسن الاستخراج » ·· كما يقول ابن قتيبة - أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) فى كتابه « تأويل مشكل القرآن» .

وليس يشك منصف أن هذا التراث البلاغى جدير بالعناية ومواصلة البحث فيه، لأنه يمثل خلاصة ما اهتدت إليه الفطر السليمةَ والأذواق الرفيعة لأسلافنا من علماء الأدب ونقدة الكلام الذين أرسوا دعائم هذا العلم النافع ، وبنوا صرحه العتيد ، بالإضافة إلى أن فن الأدب كان ومايزال الفن المتميز الأثير عند أمتنا العربية .

وإذا كان هنالك علم للغة وعلم للنحو وعلم للتصريف وغيرها من العلوم ، فإن هذه العلوم تستهدف صحة العبارة وسلامة المنطق فى كل كلام يتعامل به أصحاب اللغة ، إذ أنها علوم صحة توقف على الصواب ليحتذى ، وعلى الخطأ حتى لا يقع فيه متكلم يدعى أنه يتكلم بلسان العرب ·

أما البلاغة فإنها علم جمالى ، يبحث فيما وراء الصحة من خصوصيات الفن الأدبى ، أى أنها « علم الأدب » تختص به ، وتبحث عن أسباب الإجادة والإبداع

فى الأعـمال الأدبيـة التى يتـفاضل فـيهـا الأدباء ٠

ويجب ألا يغرب عـن البال أن « علم البلاغة » كان أول العلوم التى استقلت عن العلوم الأدبية ، وقد تحـددت مباحث هذا العلم ، وأصـبح له كيـانه منذ نشـأة هذه العلوم ، وظلت ترفـده العـقـول الواعيـة والأذواق المستنيرة ، حـتى نضج واستوى على سوقه ، وشغل حيزاً متميزاً بين علوم العربيـة ، مما يدل على حفـاوة الأسلاف بهـذا العلم الـذى رأى بعـضـهم أنه أحق العلوم بالتعلم ، وأجدرها بالتحفظ ، كما قـال أبو هلال العـسكرى (٣٩٥ هـ) فى خطبة كتاب « الصناعتين » :

« اعلم ٠٠ علَّمك الله الخير ، ودلّك عليه ، وقيَّـضه لك ، وجعلك من أهله - أن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ - بعـد المـعـرفـة بالله جـل ثناؤه - علم البلاغة ، ومعرفـة الفصاحة ، الذى يعرف به إعجاز كتاب الله تعالى ، الناطق بالحق الهادى إلى سبل الرشد ، المدلول به على صـدق الرسالـة ، وصحـة النبـوة ، التى رفعت أعلام الحق ، وأقامت منار الدين ، وأزالت شـبه الكفـر ببراهينهـا ، وهتكت حجب الشَّكِّ بيقينها » ٠٠٠

فـقـد رأيت أنه لم يـقـدِّم على علم البلاغة فى وجوب تعلمه ، والحفاظ عليه علمًـا آخـر ، وأن هذا العلـم يجىء فى أهميته تاليًا لـمعرفة الله عزّ وجلّ ، وذلك لأنه رأى أن البلاغة هى الـسبيل إلى إدراك إعـجاز القـرآن الكريم ، وهو المـعجـزة الكبرى لرسـول الله ﷺ ، وأهم وجوه إعجازه فـصاحته وبلاغتـه التى تحدى بها المشركين والمنكرين ٠

* * *

وقد رأيت المكتبة الـعربية وهى تزخر بطاقـات هائلة من المصنفـات التى عنيت بخـدمة تراث هذه الأمـة ، وفى طليـعتـه التراث اللغوى الذى حفظ التاريخ منه ثروة طائلة فى كتب اللغة ومعـاجمها منذ مسّت الحاجة إلى تدوينها والتأليف فيها ٠

وقد عنى العلماء بإحصاء ألفاظها وضبطها ، والإبانة عن دلالاتها الإفرادية والتركيبية ، وألوان التصرف فى تلك الدلالات عبر الزمان وعبر العصور المتلاحقة التى تداولت هذه الألفاظ والصيغ التعبيرية ، وطوّعتها لمقتضيات الحياة والبيئات والعصور وألوان الحضارات ·

واستطاعت هذه المعجمات أن تحافظ على أصول اللغة ودلالاتها ، كما استطاعت أن تصل حاضر هذه اللغة بماضيها ، وأصبحت بذلك عاملاً من عوامل الحفاظ على اللغة ، ومتابعة إصلاحها وتقويمها لمتابعة ركب الحياة ومقتضيات الحضارة المتحركة المتجددة ، فأسدت بذلك فائدة كبرى فى بعث اللغة وإحيائها وتجديدها ، وهى اللغة التى يفيدها عامة المتعاملين بها وخاصتهم فى هذا الزمان وفى قرون سبقته بالتعلم والتلقين ، لا عن طريق الفطرة الواعية التى اكتسبتها فى أول عهدها عن طريق السماع والمزاولة المتأثرة بوحدة البيئة ووحدة المفاهيم التى أدت إلى وحدة اللسان فى التعبير عنها ، حتى أصبح هناك عرف لغوى عام ،وهو الذى نعبر عنه بقولنا : « الدلالة اللغوية » أو « الدلالة الوضعية » أو « الحقيقة اللغوية » ·

وفى هذا اللون من ألوان الدلالة وحدة ، وفيه أيضاً دقَّة وتحديد يعرفها واضعو اللغة وأصحابها الأصليون ، وهم دائماً الحجة التى يعتد بها ، والمرجع الذى يعتمد عليه فى إدراك ما خفى من أصول التعبير وأسراره ·

وهنالك طبقة أخرى من العلماء ينتمون إلى علماء هذه اللغة العربية بأوثق الأسبابَ مع ثقافة أخرى أفادوها فى فن من فنون المعرفة ، وقد استطاع أعلام من هذه الطبقة أن يجردوا من ألفاظ العربية ودلالاتها ألفاظاً ميزها العرف الخاص فى علم من العلوم ، أو فى فن من الفنون ، أو فى صناعة من الصناعات بدلالة خاصة ، أصبحت بها ذات مفهوم خاص عند أرباب هذه المعارف والصناعات ·

واستطاع أولئك العلمـاء المتخصـصون أن يجـمعـوا تلك المصطلحـات فى معـاجم مـختـصة بضـرب من ضـروب المعـارف والعلوم والفنون ..

فكانت هـنالك مـعـاجم لـلطب ، ومعـاجم للحيـوان ، ومعاجم لـلنبات ، ومعـاجم للموسـيقى ، ومعـاجم للبلدان ومعـاجم للرجال ، وغـيرها ممـا حرص أولئك العلمـاء على جمـعه وتدوينه مـما استطاعـوا إحصاءه ، ليسهل الـرجوع إليه والإفادة منه على طـلاب المعرفـة ، وفهم مايدل عليه فى العرف الخاص لكل ضرب من تلك الضـروب الثقـافيـة العلميـة منه والفنية على السواء .

وذلك بالإضافـة إلى حشـد كبـير من الموسوعات ودوائر المعرفة التى اتسع فيها نطاق البـحث ليـشمل ضـروبًا شـتى من المعـارف والثقـافات التى تعم بهـا الفائدة لجمـاعات الباحثـين فى الثقافة الإنسـانية على اختلاف تخصصاتها .

وبقيت البلاغة العربيـة من غير معجم يضم شـمل فنونهـا ، ويضم شـتـات مـصطلحـاتـهـا التى كـانت ذات دلالات وضعـية عند أصحـاب اللغة الأولين ، ثم جنح بهـا العـرف البـلاغى إلـى تحـديد المفـهوم الخاص ، لتـصبح مـصطلحات بلاغية محدودة المعنى ، واضحة المفهوم .

وقد كان علم البلاغة فى طليعة علوم الأدب ، وكان فى الوقت نفـسه من أغنى علوم العربية ، وأغزرها بالدلالات الخاصة والمصطلحات الفنية ، لأنه العلم الجمالى الذى يبحث فى صناعـة الأدب الذى يمتاز بالعـبارة الفنية المـمتازة ، ويحصى مظاهر القـوة والـوضـوح والجـمـال فى التـعبـير الفنى .

وتلك الأسباب هى التـى دفعتنى إلى تأليف هذا المـعجم منذ أحـسست بفـراغ مكانه فى المكتـبـة العربيـة ، وبالحاجـة الملحـة إلى ملء هذا الفـراغ منذ جنح بى التـخـصص العلمى إلى البـحث البـلاغى والنقد الأدبى منذ عهد بعيد .

ومن نافلة القـول أن مؤلفى المـعاجم فى كل لون من ألوان المـعرفـة لم يكونوا هم الذين ابـتـدعـوا تلـك الدلالات التى اشتملت عليها معجماتهم ، ولكن الفضل فى ذلك كـان لأصـحـاب تلك العلوم أو الفنون الذين محَّصوا مـسائلها ، ودرسوها مفصلة فى أبوابها وفصولها بعد أن حصروا مبـاحثها ومـوضوعاتها ، وأصـبحت ذات ضـوابط ورسـوم ومصـطلحـات يعرفـهـا الخبراء بها ·

ولست أحب أن يفـهم من هذا الكلام أن أصحـاب المعـاجم أو دوائر المـعارف كانوا بمـعزل عن تلك الثقافـات التى ألفوا معجماتها ، بل إن العكس هو الصحيح ، إذ أنه لا يستطيع التـصدى لاستـقراء تلك المـصـطلحـات والكشف عـن دلالاتهـا الخاصة فى لون من ألوان المـعرفة إلا من كان حـاذقاً فيـه ، عالماً بمبـاحثه عـارفًا بأصوله وفـروعه ، خبيـرًا بمَظَانّه وأصول البحث فيه ، قادرًا على الموازنة بين الآراء ، ليـمخض زبـدتهـا ويسـتـخرج الصـالح النافع منها ·

ولابد من الإشـارة إلى أننى استـعنت فى تأليف معجم البلاغة العـربية بجميع ما استطعت الوقـوف عليه من أصول البـلاغة ومظانها المختلفة منذ بدء التفكير والتدوين فيـها ، ثم تتـبعت الآثار المـختلفـة التى سجل فيها الأسـلاف خلاصة الجهد الذى بذلوه فى إثراء هذا الفن ، ومـا أكـثر مـا خلفـوا من ثمـرات ذلك الجهـد الذى لا يقدره إلا أهل الخبرة والمعرفة ·

واسـتطعت بالجدِّ والصـبر أن أجـمع المادة العلمية لهذا الأثر ، وأن أنسّقها على النحو التالى :

١ - قسّمت هذا المـعجم إلى أبواب مرتبة على حسب ترتيب حروف الهجاء ·

٢ - رتبت المـصطلحـات والفنون البلاغية فى داخل هذه الأبواب على حسب ترتيب حروف الهجاء أيضًا ، فالهمزة أولاً ثم الهمزة مع الألف ، ثم الهمزة مع الباء ·· وهكذا حتـى الهمزة مع اليـاء وهكذا كـان الضبط والتنظـيم فى جمـيع الأبواب التى جعلت حروف الهجاء عناوين عليها ·

٣ - عمدت فى هذا الترتيب إلى الأصول اللغوية فى كل مادة من مواد المعجم بعد تجريدها من حروف الزيادة ، كما هو متبع فى معاجم اللغة التى تراعى الحرف الأول فى الكلمات وتجعله الأساس فى الترتيب ·

٤ - لم أقتصر فى هذا المعجم على ذكر الفنون البلاغية ، ولكننى ضممت إليها من حروف المعانى ماقد يتفاوت فى الأداء ، وما يؤدى أغراضا بلاغية فى بعض وجوه الاستعمال الفنى ·

٥ - عمدت إلى التعريف الذى رأيت أنه يفى بالحاجة فى كل فن من الفنون أو مصطلح من المصطلحات ، وقد راعيت فى هذا التعريف أن يكون موجزًا بقدر الإمكان، بشرط أن يبقى الوضوح المنشود فى المعاجم ، وقد يدعو حرصى على هذا الوضوح إلى شىء من التفصيل إذا دعت الضرورة إلى جلاء المفهوم ·

٦ - قد يكون المصطلح البلاغى واحداً ، ثم تتعدد مفاهيمه عند العلماء الذين يعتدّ بعلمهم ورأيهم · وفى هذه الحالة يتكرر اسم المصطلح فى المادة الواحدة بحسب تكرار المفاهيم واختلافها ·

٧ - وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيتحد المفهوم ويختلف اسم المصطلح من عالم إلى عالم ، وفى هذه الحالة تحصى هذه المصطلحات المؤتلفة لمعنى، ثم أضع كل لقب أو مصطلح منها فى الموضع الذى يقتضيه تركيب حروفه وترتيبها ، وأكتفى بإيضاح المفهوم فى أشهر الألقاب التى عرف بها ، ثم أحيل إليه غيره ، مشيرًا إلى أن هذا هو ذاك ، وقد يقتضى الأمر أن نشير أيضًا إلى اسم العالم البلاغى الذى خالف غيره فى تلك التسمية ·

٨ - وقد كان لى فى بعض فصول هذا المعجم ملاحظات استدركتُ بها على بعض علماء البلاغة ، ولم يسعنى إلا أن أسجلها مسبوقة بعبارة : « قُلْتُ » : فحيثما وجد القارىء هذه العبارة فليعلم أن

مابعدها من تعقيبات مؤلف هذا المعجم ·

ولم أرد أن يكون لهذا المعجم الجفاف الذى يحس به قارىء المعجمات المتخصصة، ولذلك بذلت الجهد فى التوضيح الكافى الذى يجد فيه القارىء بغيته من التعرف الواضح على المفاهيم الحقيقية لكل مصطلح من المصطلحات حتى يستطيع أن يستغنى بهذا المعجم عن الرجوع إلى المصادر المتباينة ، ويبعد عن متاهاتها بقدر الإمكان ·

* * *

ومضت سنوات طوال ، وأنا أهم بنشر هذا الأثر ، ثم لا ألبث حتى يغلب التردد ، فأحجم عن هذا النشر ·

وقد يكون من دواعى العجب أن يكون الباعث على الإقدام على نشر هذا المعجم وثيق الصلة بالدافع الذى كان يدعو إلى التردد والإحجام عن ذلك النشر ··

لقد كان عامل الإقدام وعامل الإحجام ينبعث كلاهما عن إحساس عميق بضرورة هذا العمل الذى كنت أعده دَيْناً فى عنقى وأعناق غيرى من المتخصصين فى مجالات البحث البلاغى على قلّتهم فى هذا الزمان، وهو دَيْنٌ واجب الوفاء لأمتنا وتاريخها وتفكيرها وتراثها الجدير بالبقاء ·

كما كان كلاهما ينبعث عن رغبة صادقة فى أن يكون هذا العمل الخالص لوجه الله والعلم ، ووجه الثقافة العربية وتراثها فى المعرفة ، عملاً ناضجاً وافياً بالمقصود ·· وذلك ماكنت أشفق منه على نفسى كل الإشفاق تقديراً منى لخطورة ما أنا مقدم عليه بعد أن أعددت له عدته من الجد الموصول ، والأناة فى تخطى عقبات طريقه واجتيازها فى سبيل الغاية التى نشدت الوصول إليها ·

ولعل من أعظم الآمال التى كنت أمنى النفس بها أن يرى هذا العمل النور وأنا مازلت فى قيد الحياة ، حتى يكون ذلك سبباً من أسباب الكمال الذى نشدته له ، إذا ما أتيح للعارفين أن يقرءوه ، وأن يقفوا على ثغرات نقص فيه ، يستطيعون أن

ينبهوا إليها مؤلف الكتاب ليتداركها ويقوِّم مُنْآدَها ، إذا وقعت عيونهم على نقص فى الاستقراء ، أو خلل فى التأليف ·

وذلك مالا أنزّه هذا المعجم أو أى أثر من آثارى المطبوعة عن وقوعه فيه ، فأنا واحد من جملة البشر الذين استولى عليهم النقص ، وإن كنت لم أقصر فى طلب الكمال !

ذلك أنى كنت أشعر دائماً بأن ما أقدم عليه من محاولة إخراج كتاب جامع لمصطلحات البلاغة العربية وأدواتها وفنونها ليس باليسير ، وأن جهد واحد من المختصين لا يستطيع أن يوفيه حقه كاملاً إلا بعناية من الله وعون منه ، لعظم المئونة وفداحة العبء ··

وقد يكون من المناسب فى هذا المقام الذى أتحدث فيه عن تجربتى فى صنعة معجم البلاغة العربية أننى فى سنة ١٩٦٤ م · قدمت أصول هذا المعجم كاملة إلى صديق عربى رأيت أنه يشارك فى الاختصاص ، ليعيد النظر فيه ، ويضيف إليه ما قد يرى أنه غاب عنى ، وشرحت له شفويًا وفى رسائل متبادلة بيننا النحو الذى ينحوه فى العمل كما أراه ، وأعطيته الحق فى أن يضع اسمه بجانب اسمى ، وأن يشرف على طبعه ونشره ، فقد يكون عنده من قوة الجسد ونشاط الشباب مالا أجد · وقد ظلت أصول هذا المعجم بين يديه خمس سنوات كاملة ، ثم كان أن ذهبت إلى بلده العربى الشقيق سنة ١٩٦٩ م مشاركاً فى أحد المؤتمرات العربية التى أقيمت فيه ، وكانت المفاجأة التى لم أكن أتوقعها ، فقد أعاد إلىّ أصول هذا المعجم كما تسلمها ، وقال إن ماصنعته فيه الكفاية والكمال المنشودان ، وأنه لم يستطع فى هذه السنوات الخمس أن يعدّل فى الكتاب شيئًا ، أو أن يضيف إليه فنًا ، فشكرته ، وحملت أصول كتابى معى إلى القاهرة !

لم يبق بعـــد ذلك أمـامى إلا أمـران أحلاهما مرّ ، فـإما أن أنهض بهذا العبء الذى أشفق منه ، وأحتـمل ثقله وحدى ، وإمـا أن أدعه طعـامـاً للأرضة والجـرذ ، حتى يلفظ آخـر أنفاسه ويموت فى مـهده إلى الأبد ٠

ولـم أرد أن أقـدم هـذا المـعـجم إلى دار النشر التى تقوم بطبع كتبى ، وتحتمل عنى تكاليف الطـباعـة والإعـلان ، فقـد أشفقت على صاحبها من التكاليف الباهظة فى إخـراج المعـجم بالشكل الذى أريد ، ومن الخسارة المحقـقة التى يتعرض لها ، فكم عدد الذين يعنيهم أن يقتنوا نسخًا من هذا المعجم المتـخصص فى ناحية واحدة من نـواحى المعـرفة التـى لا حصـر لـها ، وهو على كل حـال تاجر يجـيد حـساب الربح والخسارة ٠٠

وأخـيـــراً ٠٠ تدركنى عـناية الله، فترحب جامعة طرابلس بالجمهورية العربية الليبيـة بهذا المعجم ، وتتعـاقد معى سنة ١٩٧٤ م ٠على طبعـه ونشره لقـاء مكافأة قدرها سـبعـمائة دينار نقـدتنى نصفـها ، ومـايزال النصف البـاقى مع النسخ المتـفق عليها للهدايا فى ذمتها إلى الآن !

ثـم صـدرت الـطـبـعـة الثـــانيـة فى الرياض سنة ١٩٨١م٠ ثم الطبـعـة الثالثـة سنة ١٩٨٨م٠وكانت جملة المطبوع فى تلك الطبعات الثلاث خمسة عشر ألف نسخة ٠

وكان مجموع ما اشتملت عليه الطبعة الأولى ٩٠٣ من الـفنون والمصطـلحـات وصلـت فى الطـبعـة الثانية إلى ٩٢٦ وفى الثـالثـة إلى ٩٤٥ ، وتـصل فى الطبـعـة الرابعة التى تقدم قريباً إلى المطبعة بإذن الله نحـــو ٩٨٠ من الـفنون والمصـطلحـات البلاغية ٠

وقد وفق الله إلى هذه الزيادات بإدامة النظر ، ومـتـابعـة البـحث والتنقـيب فى أصول البلاغة ومصادرها ٠

ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم٠

★ ★ ★

والحمد لله على مـاهدى إليه ، وأعان عليـه ، وله الحمد فـى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه المرجع والمآب ٠

بدوى أحمد طبانة

عضو المجمع